أربع قصص

محمود الريماوي

١ - الأول والثاني

ذاك الذي أقفل على نفسه، وعقد العزم على أن لا يترك ثغرة يتسلل منها أحد إليه، حتى أقرب الناس إليه، شاءت المصادفة أن يلتقي ذاك الذي لا يبهجه شيء، كبهجته في العثور ولو على ثغرة صغيرة، يتسلل منها إلى غيره.

لقد التقيا في ظهيرة يوم صيفي، بعد أن ارتطمت سيارة الثاني بسيارة الأول، وفي ذروة حركة المرور. لم يكن الحادث خطيراً ولا حتى مؤذياً. كان عنيفاً فقط، خاصة على الأول الذي أخرجه الارتطام من شروده المعتاد. إذ إن سيارة الثاني وهو المتسبب هي التي تضررت في مقدمتها.

نزل الأول يستطلع ما حدث، وبادر قائلاً بعدما لاحظ الضرر الطفيف، الذي لحق بسيارته من الخلف:

- ما الذي فعلته؟

أجاب الثاني وقد ارتسمت على محياه الأربعيني علامات اندهاش..

- أنا آسف.. كأنني أعرفك.

بهت الأول غير مصدق..

- ما دمت تعرفني، لماذا ارتطمت بي؟.

- إني آسف بالطبع. لا يخطئ المرء إلا بحق من يعرفه.

محمود الريماوي، كاتب وقاص من الأردن.

لم يكن الأول على معرفة بالثاني . غير أن ذلك لم يمنعه من التفتيش في تلافيف ذاكرته المكدودة، عما إذا كان يعرف هذا الشخص حقاً، وإذا ما سبق له أن رآه من قبل، دون أن يفلح في ذلك .

- الحادث ليس بهذا السوء . شركة التأمين سوف تتولى اصلاح كل شيء، هذا إذا كان هناك ما يستحق اصلاحه في سيارته .

ثم عرض على الأول سيجارة، فأشاح هذا بيده قائلاً :

- ما دمت تعرفني، فقد كان يجب أن تعرف أني لا أدخن .

- حتى لو لم تكن تدخن، فمن اللائق أن أعرض عليك سيجارة . أعرف أناساً لا يدخنون ومع ذلك يدخنون سيجارة واحدة في مناسبة ما . . هل عرفتني؟ .

قال ذلك وهو يمد إليه بطاقة التعريف الشخصية، غير أن الأول كان قد أدار ظهره في الأثناء، متجهاً إلى مقعد السائق لينطلق بسيارته . تبعه الثاني وعرض عليه البطاقة ثانية، التقطها الأول دون أن ينظر فيها . وجلس على مقعده فيما احتفظ الثاني بوقفته طالباً منه بطاقته .

- ألست تعرفني . . ما حاجتك ببطاقتي؟ .

- من لا يعرف الأستاذ يوسف . ولكني أريد رقم التليفون والإيميل .

لم يكن الأول يحمل أية بطاقة، ولم يكن يستخدم هذه البطاقات أبداً، وكاد يقول لـ «صاحبه» : أنا محمد يوسف، ولست يوسف . واكتفى بالقول : كفى تعطيلاً لحركة السير . سوف أتصل أنا بك .

قال ذلك وانطلق بسيارته . وخلافا لتوقعه فقد احتفظ بالبطاقة لوقت طويل . وقد همّ غير مرة بالاتصال به . إلا أنه كان يمتنع عن ذلك كل مرة في آخر لحظة . لا، لم يترك الاسم أي انطباع لديه، بأنه على معرفة بصاحبه . و«في خمسينيات عمر المرء، فإن الفضول للتعرف إلى الأشخاص يتضاءل إلى حد بعيد» . ظل يردد لنفسه بثقة وبقدر من الأسف . على أنه تيقن أن الثاني لم ينجح فقط في التسلل إليه، بل سوف يجعل من الحادث ومنه شخصياً بالتالي، مدار حديث دائم ومثال تسلية له في جلساته، وظل هذا الخاطر كلما أتاه يصيبه بصداع .

٢- ليليان ودليلة

حل في حديقة الحيوان في بداية الخريف، قرد وقردة ليسا كبقية قرود الحديقة . فالأنثى ذات

سحنة معتمة، وفم مائل، وعينين غائرتين كما لو أنها عمياء. ومع عدوانيتها كان يروقها إهانة شريكها لها. إنه يضع قدمه فجأة، فيما هو يتثاءب، على صفحة وجهها الصغير. تنتشي هي لمداعبته وتسترخي، حيث تأخذ قدمه المشعرة راحتها على الوجه المتغضن. وقد يفاجئها بخرمشتها أو عضها أو حتى التبوّل عليها فيما هي تقشر حبة موز، دون أن يكدرها ذلك، أو يثنيها عن مواصلة التقشير.

لقد أطلق عليها حارس الحديقة، نقلاً عن بعض الرواد اسم دليلة، أما الذكر فلم يطلقوا عليه اسم شمشون، بل اسم ليليان. اختار الاسم رجل ارمني يتردد على الحديقة مصطحباً أطفاله. ليليان أي ابن الليل. وقد عزا ذلك ليس إلى سواد بشرة القرد، وهذه كانت رمادية وليست سوداء، بل لأن طباعه كما قال سوداء كالليل. هكذا وصفه الرجل الذي يعمل مصوراً، والذي عزف عن التقاط صورة لأطفاله أمام قفص دليلة وليليان، لأنهما «غير شكل» وكريهان كما قال. فهما يستقبلان الزوار بأصوات زاعقة، قبل أن يمطراهم بما تقع عليه أيديهما الطويلة من بقايا قشور، وحتى آنية الماء والطعام، يفعلان ذلك بتلذذ واستعراض، ويستهدفان الأطفال والنساء والعجائز، وحتى العابرون من المشاة لا يسلمون من أذاهما.

وإذا ما تجمهر أطفال مدرسة أمام قفصهما، كما يجري في رحلات المدارس، فإن دليلة تجد أن ذلك هو الوقت المناسب لكي تتشمم أنحاء جسم ليليان من الأمام والخلف. أما ليليان الذي يكبرها حجماً وعمراً، وبعد أن تفرغ دليلة مما هي فيه، فتبدو له تلك اللحظات لدى تجمهر الأطفال هي الملائمة لكي يلتصق بها، وإذ يثير ذلك ضحك الأطفال، فإنه يثير أيضاً حنق من هم أكبر سناً، خاصة حين تعمد دليلة في تلك الأثناء، إلى فتح فمها العميق ومد لسانها للأطفال.

وخلافاً لبقية القردة في الأقفاص المجاورة، التي تنسب إلى مواطنها الأصلية، فإن قفص ليليان ودليلة يحمل لوحة على القضبان، تفيد أن موطنهما مجهول وان فصيلتهما مهجنة وهو ما يثير فضول الجمهور، قبل أن يثور حنقه على غرابة أطوارهما. حتى أن أستاذاً في علوم الأحياء وفد ذات مرة إلى الحديقة في مهمة علمية، وصفهما بأنهما في سلوكهما يخالفان نظرية داروين مخالفة تامة، فإذ تفيد تلك النظرية أن الإنسان هو مستقبل القرد، فهما يتصرفان بثقة مفرطة تدل على «قناعتهما» أن القرد هو مستقبل الكائن البشري.

يحدث مثل ذلك في حدائق الحيوان، فثمة مخلوقات تقيم في غرائزها الخام وتتأبى على

الترويض، فإذا الكائن منها غريزة أولى خالصة تتغذى من ذاتها وتستعر من تلقائها، كما هو حال هذين المخلوقين اللذين تسببا بمشكلات جمة للرواد وللقائمين على الحديقة، كهياج مفاجئ منهما بعد تناول وجبة طعام مثلاً، وتعمد كل منهما إشاعة القذارة حوله، وإيذائهما للأطفال وكبار السن، بمد اليد الطويلة من خلال القضبان، فإذا تجاوب طفل ومد يده للسلام والمداعبة، فإنه يجري شد الذراع من طرفهما بطريقة مفزعة.

لم تلبث إقامتهما في الحديقة سوى لبضعة أسابيع، على أنها كانت فترة طويلة على الحراس والمروضين وبقية العاملين «أخطأنا في قبول الهدية من إحدى المنظمات.. كان من الخطأ قبولهما في الأصل». قال ذلك أحد الحراس، مشدداً على أن القرود لطيفة ولا تناصب البشر العداء، كما هو حال هذين المخلوقين. وتهكم حارس آخر بالقول «إنهما يسيئان لسمعة القرود».

وبينما كان يتم نقلهما ذات صباح إلى المحجر الصحي، تمهيداً لاتخاذ قرار بشأنهما، فقد أبديا داخل القفص ممانعة شديدة لنقلهما، إذ تسلقا القضبان وشرعا يتصاحيان، دون أن يدركا كم كانت إقامتهما مقيتة. أما الطبيب البيطري الكهل الذي أمضى سحابة عمره المهني في هذه الخدمة، والذي وقف بحكم مهنته على أخلاق البشر والحيوانات معاً، فلم يتردد في القول أمام شكوى العاملين في الحديقة، بأن ليس لأحد أن يفاجأ بفساد هذين المخلوقين، فثمة بشر بيننا أو حولنا يتخلقون بهذه الأخلاق وما هو أسوأ منها. قال ذلك وهو يتحسس مسدسه الخاص بالتخدير، ويعبر بحذر إلى قفصهما لمعاينتهما، متوجساً من أذى قد يلحقه من حيث لا يحتسب، متفادياً الإصغاء للهاثهما وملاقاة نظراتهما.

٣- الشجرة تبتئس

الشجرة العالية الطويلة بارتفاع يناهز عشرة أمتار، التي تتوسط رصيف شارع فرعي ليس ضيقاً، والتي تجاورها وتقابلها أشجار أخرى، تماثلها أو تقل عنها طولاً، وتنشر جميعها أغصانها الممتدة بأوراقها الكبيرة، ذات اللون الأخضر المشرق غير الداكن، إذ يتخلل ضوء النهار سطح الأوراق فتبدو هذه مشعة، وتكاد تضيء في ساعات العتمة.

الشجرة العالية الطويلة التي لا اسم لها بين الناس، لا يميزها شيء عن بقية شقيقاتها، سوى أنها تكثر من الحديث إلى نفسها، ربما لشعورها بالوحدة بعدما تقدمت في السن وتخطت الثلاثين من

عمرها، وهناك من قال إنها تخطت سن الأربعين، في انتصابها على ضفة أحد شوارع المدينة.

على أنها في جميع الأحوال أطول عمراً وأقدم عهداً من البناية المجاورة لها، التي يعبرها ويغادرها أناس كثيرون كل يوم، ويوقف بعضهم مركباتهم تحت ظلالها.

الشجرة التي ما فتئت قوية خضراء، تخشى مع ذلك أن يكون أدركها سن اليأس، فحين بنى البناؤون البناية المجاورة لم تكن الشجرة بهذا الطول، إذ كان ارتفاعها لا يزيد عن مترين، ولم يمض عام واحد حتى أكمل البناؤون بناء البناية الشاهقة، فبدت الشجرة أمامها قصيرة هزيلة لا تملأ العين، وهو ما أثار نقمة الشجرة على نفسها، وأثار ارتفاع البناية حسدها، فعقدت العزم على أن تنهض: تنمو وترتفع، وقد تأتى لها ذلك خلال بضع سنوات، حيث واظب ساكنو البناية في الأثناء على سقايتها في أشهر الصيف، مما أعانها على نمو سريع. غير أنه قد مضت الآن سنون كثيرة، دون أن يتيسر لها النمو. لقد وقعت في الخطأ فلن تبلغ البناية طولا.

من جهتهم فإن ساكني الطابق الأخير الطابق السادس من البناية، كانوا يمنون النفس بأن تتمكن الشجرة من الارتفاع، كي تلقي بظلالها الوارفة على الشرفة الجنوبية في ساعات الظهيرة، وان تهبهم ذلك المشهد الفاتن لاشتباك الخضرة بالفراغات، والضوء بالظلال، غير أنه لا أمنياتهم قد تحققت ولا أمنيات الشجرة، فقد توقف نموها المفترض عند ارتفاع يجاور الطابق الخامس فحسب.

ومع ابتئاس الشجرة مجهولة الاسم، وخشيتها من بلوغ سن اليأس، فقد فاتها أن البنايات تبنى ولا تنمو، وانها هي الأطول بين مثيلاتها من أشجار الشارع. لم يقل لها أحد ذلك، ولا هداها قلبها الملتاع إليه.

٤- الشجرة تطير

لن يكون هناك ما هو أسوأ لشجرة التفاح القصيرة، من أن يطبق الليل وأن تزمجر في أحشائه عواصف الشتاء، والشجرة بلا أوراق عارية الجذع والأغصان.

رفيقاتها في الحقل نائمات حتى وهن مرتجفات. أما هي فتتنهد مع نفسها في العتمة، وتتساءل: لماذا منذ نبتت في هذا المكان، لم تبرحه ولو لمرة واحدة. ولأن الساهر لا بد أن ينام ذات ساعة، مهما طال به السهر، فقد نامت شجرة التفاح الصغيرة، وحلمت أنها تطوف في الأرجاء البعيدة،

وتتخير لها موضعاً هنا، ثم تفارقه إلى موضع هناك. مرة قرب بيت بقرميد، ومرة أمام قصر صغير، ومرة على ربوة تحيط بها بيوت ينبعث من حدائقها أصوات لعب أطفال يلهون. وقد أمضت وقتاً طويلاً وهي حائرة في اختيار هذا الموضع أو ذاك، حتى انبلج الفجر الذي خالطته العتمة، فاستيقظت ولاحظت أنها لم تبرح مكانها وسط حقل فسيح قلما يرتاده الصغار، وحتى العصافير فإنها لا تحط على أشجار هذا المشتل، إذ تبحث عن أشجار كبيرة عالية.

وقد قصّت على جارة لها أكبر منها، ما رأته في الحلم من تطوافها على مدن وحقول بعيدة. ولدهشتها فإن الجارة تبرمت مما سمعت منها. حتى أنها امتنعت متذمرة عن الكلام. ولما ألحت عليها جارتها الصغيرة بأن تتحدث إليها، قالت لها إن حلمها نذير شؤم. فانتابتها الدهشة مرة أخرى.

- أي شؤم في أن أحلم بالطيران؟

- ذلك يعني أن تقتلعي من جذورك. . هل يرضيك هذا؟

فوجئت بما قالته وشعرت بخوف شديد.

- لا. . لا يرضيني.

- اسمعي، الأشجار تنمو وتورق وتثمر، لكنها لا تطير. العصافير والطيور هي التي تطير، أما الأشجار فلا تطير أبداً.

لم تجد شجرة التفاح الصغيرة ما تقوله، فجارتها أكبر منها تعرف أكثر منها، ويجب أن تثق بها. ومع ذلك فقد شعرت بالغصة، إذ إنها على ما سمعت من جارتها، فلن تبرح هذا المكان أبداً. وحتى لا تنخرط في البكاء فقد غمغمت لنفسها: أطير في الليل وتطير معي الجذور، ثم أعود إلى هنا في النهار. هذا يرضيني وهذا ما أريده. وقد بدت بعدئذ راضية متبسمة، وأخذت تمضي وقتها سحابة النهار، وكأنها تتدرب وتتأهب للطيران في الليل.